إلمامة تاريخية ساذجة

بعصر أبي بكر الصديق

بقلم الدكتور احمد فريد رفاعي

— ١ —

قصة ظريفة لا اتذكر تماماً أين قرأتها ، ثم لا اذكر الفاظها وكلماتها ، كما لا أذكر كاتبها ومؤلفها ولكني اذكر شيئاً واحداً واذكره جيداً . . . . . ذلك اني تأثرت بها وكان تأثري بها عظيماً وبليغاً وعميقاً . . لأنها كانت ساذجة والعقول الساذجة تحب ما هو ساذج وتتأثر بما هو ساذج . ثم هي تنطبق على الواقع بقدر ما تنطبق على تصوير الحق واختلاف الناس في تصوير الحق . . والحق نسبي كما تعلم ولا يستطيع العلم مهما كان قوياً وناضجاً ، ومهما كان دقيقاً او كاملاً ، ان يزعم انهُ وصل الى الحق الكامل غير المنقوص ولا المبتور

قصتي التي رأيت ان استفتح بها حديثي معك ، والتي زعمت لك انها ظريفة ، وزعمت لك انها ساذجة ، ثم زعمت لك انها تنطبق على الواقع بقدر ما تنطبق على تصوير الحق واختلاف الناس في تصوير الحق — هي عن عميان سبعة اجتمعوا بفيل ، فرأى كلٌّ ان يصف الفيل للآخر ، واعتقد كل انهُ مصيب لباب الحق وسدرة الصواب فيما هو واصف وفيما هو متكلم . ولماذا لا يعتقد انهُ مصيب الحق والصواب وهو لا يتكلم الا بما يحسُّ انهُ الحق والصواب . . . . لقد وصف الاول الفيل بانهُ كجذع النخلة لأنهُ امسك بيده ساق الفيل وساق الفيل بجذع النخلة شبيهة ومثيلة . . . ووصف الثاني الفيل بانهُ كالأفعى لأن امسك بيده خرطوم الفيل . . . . ووصفهُ الثالث بانهُ كالحائط لأن يده وقعت على جنبهِ . . . . وابى الرابع الا وصفه بالمروحة لأنهُ عثر على اذنهِ . . . وابى الخامس غير السادس والسادس غير السابع . . . . وكلٌّ استمسك برأيهِ ودافع عن وصفهِ . وكلٌّ آمن بحقهِ وكذَّب بحق غيره . . .

تلك قصة لا تعدو ما نقع فيهِ كل يوم . . . . ومن زعم انهُ بصير بكل صحيح ، ثاقب النظر في كل امر ، وانهُ ليس عرضة لأن يصيبهُ الباطل ولو « رشاشاً » ولا اقوث عن يمينهِ او يسارهِ فأخشى ان يكون حالهُ كحال احد السبعة الكرام

ولكنا نرجو ، وهذا كل ما نملكهُ في ميدان العلم ، وفي ميدان كتابة التاريخ وقد اصبح

فرعاً من العلم ، وفي كتابة التاريخ الاسلامي وهو اشقّ فروع في تاريخ هذا العلم ، لانه لم يخضع بعدُ الخضوع العلمي الصحيح . . . لم يخضع بعد للشرحة ولم يذعن بعد للتحليل — نرجو — ونحن نؤمن بقصتنا — ان نستوعب وصف السادة السبعة ، ونجمع من وصفهم شيئاً يقربنا في مجموعه مما هو حق ومما هو صواب

اجل نرجو ان يكون لنا من اقوال الشيعي وغير الشيعي ، الاموي والعباسي ، والخارجي وغير الخارجي ، ما ينكب بنا عن ضلالة الامعان مع هذا او ذاك . كما نرجو ان يكون ايانا بضرورة البحث عن الحق في شتى نواحيه ، مدعاة للتقرب منه واعداداً لتذليل صعابه وازالة عقابه . ولو نسبيًّا . . . ولو خطوة واحدة الى الامام . . . في سبيل تفهم هذا التاريخ المجيد العظيم

— ٢ —

وليس من جديد عليك ياصاح ، أن تعلم غير معلّم ، ان التاريخ الناقع المجدي هو ما كان ناضحاً مجدياً للانسانية . وللانسانية عامة . ذلك لانك تعلم ما كان من أمر تلك المحاضرات التي ألقيت في مؤتمر « التربية والمدن » الذي عقد في تورنتو عام ١٩٢٣ ثم تعلم ما كان من أثرها في تطور التاريخ . . . وفي تطوره الى وجهته « الانسانية » العامة لا « الامية » الخاصة فيما بعد

كذلك ليس من جديد عليك ، ان تعلم اثر ولز في « تبسيط » التاريخ واثر « لدوج » في تمجيد التاريخ . اما تبسيط التاريخ فبأن يكون سهلاً معقولاً ، واما تمجيده فبأن يكون رائعاً أخاذاً

كذلك ليس من جديد عليك ، ان تعلم ان صاحبة « الجلالة » المطبعة التي هي الوالدة الشرعية لصاحبات « الجلالة » ان شئتَ ، أو « السمو » إن أحببت — الصحافة والمكتبة ، والحرية ، والمدنية — هذه الوالدة الجليلة الشأن . . . . تلد فيما تلد — او بعبارة اصح واقرب الى الدقة — تخلق فيما تخلق — نواحي من الاقناع قوية . وتزلف بالفعل نواحي من العظمة قوية . ثم تعمل من وراء ما تقدم على نشر الايمان بالعظمة ، وإذاعة التخلق باخلاق العظمة ، والايمان بصفات العظمة ، لانها خير منظار مكبر للقليل من صفات العظمة فما بالك بكثيرها . . . .

واخيراً ليس من جديد عليك ان تعلم ان الرأي العام بعد الحروب يندفع في تيارات من المبالغات ، ثم يتراجع سريعاً في المناقصات . . فهو بين مدٍّ وجزر في المعتقدات والآثار . . . . والحياة معتقدات وآثار . . . .

تلك هي اعتبارات اربعة هي « في ذهنك » بلا ريب وانت تدرس معي تاريخ عصر ابي بكر بروح « الانسانية » العامة لا « الامية » الخاصة ، وبجدة البساطة الحديثة التي لا تحفل بتعقيدات الوقائع والحروب . وانت تدرسه غير عازب عن فكرك ان عظمة الماضي كانت عظمة ساذجة لم تسبغ عليها صاحبة الجلالة المطبعة بشيء من ياشينها واوشحتها ، ولم تتل من

زينة الدعاية وطلاوة الاذاعة وبريق النشر قوة البطولة المكتسحة ما أمامها . وتدوسه معي وانت متحصن بما تقدم من الاعتبارات، غير آسف بالطبع الاعتصام من تيارات المبالغات والمناقصات

—٣—

«جيوفاني پاپيني» عقلية ايطالية ماردة . ذهبت في الشهوات مذهباً حاداً ينطبق كثيراً عليها قول الحريري « أيها السادر في غلوائه ، السادل ثوب خيلائه ، الجانح في جهالاته ، الجانح الى خزعبلاته . . . . » ولكن هذه الشخصية الماردة في شهواتها وكفرياتها وفلسفياتها ونظرياتها وزندقتها وتألهها إنقلبت بعد بوتقات المحن ومصاهر التجاريب الى شخصية ورعة ممعنة في الورع. شخصية متقنة تقية متبتلة ينطبق عليها في مرحلتها الاخيرة وصف عُدي بن حاتم في أحد معاصري ابي بكر . . . . « يقول عدلاً ويحكم فصلاً ، تتفجر الحكمة من جوانبه، والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يحاسب نفسه اذا خلا ، ويقلب كفيه على ما مضى ، وكان .... وكان .... وأقسم لقد رأيته ليلة ، وقد مثل في محرابه وأرخى الليل سربال . . . . . يبكي بكاء الحزين، فكأني الآن اسمعه وهو يقول: يا دنيا إليّ تعرضت أم إليّ اقبلت ، غُرّي غيري لا حان حينك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها » . . . .

وإذا كان « جيوفاني پاپيني » أصبح خير من كتب عن المسيح بعد حياة كفر وزندقة ، واصبح الورع المؤمن بعد حياة شهوة واستهتار . . فالامر كالافراد كفر فايمان ، وإذا كان نابليون بونابارت كان واعظاً في اوليات ايامه لاخيه يوسف . وكان زاهداً في كل شيء قبل جوزفين وبولين فانه انقلب فجأة الى ما انقلب اليه من نقيض الى نقيض . . . . كذلك الحال في الكثير من العرب بعد ايمانهم وبعد متربهم وعوزهم ، وبعد يأسهم الى تحضيرهم ، وبعد خيامهم الى آطامهم . . . فنترجم معي . . الى نظرية المبالغات والمناقصات ، والمناقصات الى المبالغات . .

ولكنك ستقول إن الفكرة أو العقيدة هي التي تفعل هذا كله . وهي الى ان «تتركز» تمر بتلك التيارات . وانت محق بلا شك . وحروب الردة مجزم بانك محق بلاشك . وحروب الردة كانت بوتقة لتجديد الاسلام ، وكان مصهراً لخلق العرب خلقاً جديداً

— ٤ —

يقول كارليل في كتابه القيم « الابطال وعبادة البطولة » في معرض كلامه عن البطل في صورة نبي : « هل رأيتم قط ـ معشر الاخوان أن رجلا كاذباً يستطيع ان يوجد ديناً عجباً . . . ! والله إن الرجل الكاذب لا يقدر ان يبني بيتاً من الطوب . . . ! فهو إن لم يكن عليماً بخصائص الجير، والجبس والتراب ، وما شاكل ذلك فالذي يبنيه يبيت ، وإنما هو

قل من الانقاض ، وكثب من اخلاط المواد . . . . الى ان يقول « . . . . ! ما الرسالة التي أداها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول . . . . ! كلا ، ما محمد بالكاذب ، ولا المتفيق ، وإنما هو قطعة من الحياة ، قد تفطر عنها قلب الطبيعة . . . . فاذا هي شهاب قد اضاء العالم اجمع »

ولست أدري يا صاحبي هل كان كاتب الانسانية « كارليل » قد اطلع على كل جزئيات حياة بطله « محمد » ؟ هل كان قد اطلع على كل ما ناله من اذى وتشريد ؟ هل كان قد اطلع على فقره يافعاً وصغيراً ، وزهده شيخاً وكبيراً ، وحكمه وسداده مبشراً ونذيراً ؟ هل كان قد اطلع على ما كان بينه وبين عتبة بن ربيعة حينما قال له : « إنك قد اتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جمعهم ، وسفهت به احلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاستمع مني اموراً لعلك تقبل منها بعضها . . . فقال له رسول الله . . . قل يا أبا الوليد . . . قال « إن اردت بالذي فعلت مالاً جمعناه لك ، او شرفاً سودناك علينا ، فلا نقطع امراً دونك ، وإن كان يأتيك رؤيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه اموالنا حتى نبرئك منه . . . قال . . . « افرغت يا أبا الوليد . . قال نعم فاستمع آيات من سورة السجدة وسجد . . . فقام عتبة الى اصحابه بغير الوجه الذي ذهب به ، فقالوا ما وراءك يا أبا الوليد . . . قال وراءي اني سمعت قولاً ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة . . . . اطيعوني يا معشر قريش ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ . قالوا . . « سحرك يا أبا الوليد . . ؟ » قال لنجمع أشراف كل قبيلة عند ظهر الكعبة ، ونبعث اليه ، ففعلوا فجاءهم حتى جلس اليهم ، فقالوا انا والله ما نعلم رجلاً من العرب ادخل على قومه الذي ادخلت ، الى آخر ما قاله عتبة . . فقال مالي ما تقولون . . « ما جئت بما جئت ، لأطلب اموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن بعثني الله اليكم رسولا ، وانزل علي كتاباً وامرني انا اكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا مني ماجئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي اصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم »

أجل ، لست ادري شيئاً من هذا ، ولكني اجزم بأن « كارليل » على حق ان الرجل الكاذب لا يقدر ان يبني بيتاً من الطوب . . . وان الرسالة التي اداها محمد حق صراح ، وانه قطعة من الحياة تفطر عنها قلب الطبيعة . . . ! ثم اجزم لك ان القاضي عياض وشراح القاضي عياض « وميور » و« أميل درمنغم » . . . . وعشرات الرواة والمؤلفين كانوا على حق في تعنيتهم بصفات رسول الاسلام وباعث دولة الاسلام . كما اجزم لك ان

من يقول « السعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفسه . . ويقول . . اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك . . ويقول . . طوبى لمن شغله عيبه عن الناس ، وطوبى لمن انفق من مال اكتسبه في غير معصية . . ويقول . . ضع المعروف الى من هو اهله ، ولمن ليس اهله . . . » اجزم ان من يقول ذلك ثم من كان من صفاته التي هي على غرار واحد وطراز واحد ومن معدن واحد انه كان « سهل الخلق ، لين الجانب ، دائم الفكرة ، متواصل الاحزان ، طويل السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة . . . . يخزن لسانه إلا في ما يعنيه ، كلامه فصل لا نزر ولا هذر . لا يذم أحد ولا يعيبه ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما رجى ثوابه ، مجلسه مجلس حلم وحياء وأمانة وصبر . . نظره الى الارض اطول من نظره الى السماء ، تنام عيناه ولا ينام قلبه . . . يتفقد اصحابه ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه ، أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة ، وأعظم الناس عنده منزلة احسنهم مواساة ومؤازرة ، يرفد صاحب الحاجة ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه . . . . يزور ضعفاء المسلمين ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم . . . يمر بالصبيان فيسلم عليهم . . . . واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس . . . » اجزم ان من تكون هذه بعض صفاته — لافضلي حسناته — لا بد وان يكون عظيماً في اثره ، صادقاً في رسالته ، مثقفاً لآلته . ولا بد وان يكون عصره وعصر خلفائه عصر نور وعرفان ، وهدى وايمان

وكيف لا يكون عصره وعصر خلفائه عصر نور وعرفان ، وهدى وايمان ، وقد تأدب القوم فيه بأدب القرآن ، وليس من قصدنا ان نتحدث اليك عن اعجاز القرآن وقد قرأت ما كتبه الاوائل والاواخر من الزمخشري والرازي والجرجاني والرماني والواسطي والعسكري وابن رشد والباقلاني والرافعي وغيرهم

اجل تأدب القوم بأدب القرآن ، وعشت في عروقهم روح الايمان . حتى رأينا النساء كالرجال في التضحية في سبيل الوطن ورفعة شأنه ، ولعلك قد قرأت في السير ما كان من صفية بنت عبد المطلب ، وقد شهدت بعينها مثيل المشركين في واقعة أحد بسيدنا حمزة عم النبي ، وكانت هند وصاحباتها قد جدعنه ، وبقرن عن كبده ، ولاكتها ولم تسغها فلما رأى النبي ذلك في حمزة ، وأقبلت اخته صفية أشار عليه السلام على ابنها الزبير ليردها حتى لا ترى ما حلّ بأخيها ، فلقيها واعلمها . . . فقالت . . . وهي الكبيرة القلب ، الدامية الفؤاد ، ولكنها المترعة الايمان ، القوية العقيدة ، الخالصة الاخلاص . . . قالت : « بلغني انهُ مُثّل بأخي ، وذلك في الله قليل ، فما ارضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن ! »

تأدب القوم بأدب القرآن ، وأدب نبي القرآن ، ولعلك تذكر ما كان من قوم عطشى من جند المسلمين في تلك الايام ، يجودون بارواحهم في سبيل الله وسبيل الوطن قد طلب احدهم ماء فأتى بالماء . . . وإذ بالثاني قد طلب الماء وإذ بالثالث قد طلب الماء . . . وإذ بغيرهم قد طلب الماء ، فآثر كلٌ اخاه على نفسه واستقبل الموت في سبيل انسانيته وبره وايثاره !

تأدب القوم بأدب القرآن ، وأدب نبي القرآن ، فلماذا لا يفوز جند قليل على جند كثير ، ولماذا لا ننتظر من كل قائد من قواد العرب في تلك الايام إن يصيح في جنده قائلا مقالة عبد الله بن رواحة . « انتم إنما خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة إلا بهذا الدين الذي اكرمنا الله به . . . . . ! »

يقول توماس كارليل : « ان عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلاداً كريمة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق ، فكان ثمت شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم ، وكأنهُ يبسط من قسوة قلوبهم مزاج من الطين والدماثة ، كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء ، وقيعان ذات أمواه ، وأكلاء » وإن كارليل لو وقف على اعجاز القرآن بقدر ما تفهم أسرار عبقرية محمد لكان يسمنا الكثير المطرب من شجي كلامه وعذب منثوره عن مبلغ تطور الخلق العربي تطوراً الى خير الانسانية في عصرنا الذي نتكلم عنه . . ذلك العصر الذي كان من أولى مميزاته الايمان العميق والاخلاص العميق ولا غرو فان محمداً وصحابة محمد كانوا على ايمان واخلاص والاخلاص كما يقول كارليل عن البطل في صورة نبي : « هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان . . . . . ! »

إذن فليس بغريب ان نشاهد من أبي بكر وصحابة أبي بكر قيامهم جميعاً قومة رجل واحد ، بدافع الايمان والاخلاص ، لحرب الردة ، ولبسط سلطان الاسلام ، لا للغنائم والسجال ، ولا للفتح أو طلب المال ، وإنما في سبيل الايمان ، وفي سبيل تحرير بني الانسان

—٦—

ولكنك تطالبني الآن بالتحدث اليك في الردة من حيث كونها بوتقة صهر بها الاسلام وخرج منها قويًا متماسكاً ، وثابت من بعدها نجاحاً مؤزراً . وأنت تعلم ان الردة في جملتها امتناع فريق من العرب كبير عن اداء فريضة الزكاة باعتبارها نوعاً من الاتاوة ، وفاتهم انها نوع من المعونة والرحمة والعطف من غنيهم لفقيرهم ومن قويهم لضعيفهم . وتعلم ان تيار الردة كان قويًا وجباراً في قوته حتى كاد يكتسح الاسلام اكتساحاً ، لولا انهُ دين الله ولولا ان ثبت للمرتدين مثل ابي بكر فرماهم بشجعان العرب وفرسان المهاجر وابطال المواقع أمثال خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، وشرحبيل بن حسنة ، والمهاجر بن ابي أمية ،

وحذيفة بن محصن. وعرفجة بن هرثمة، وسويد بن مقرن، والعلاء بن الحضرمي، وطريفة ابن حاجز، وعمرو بن العاص، وخالد بن سعيد والمئات من امثالهم وفي بسالتهم

تعلم هذا وتعلم من الطبري وغير الطبري النصوص التي كتبها ابو بكر لأمير كل بعث ولجماعة المرتدين في كل قطر، وقد هالك طبعاً ان نيران الفتنة قد لهبت في كل صقع من بلاد العرب، وهالك طبعاً انه الى جانب هذا الارتداد الجزئي ارتداد اوسع لطاقاً وابلغ خطراً هو ادعاء النبوة عند الكثيرين ممن يصح ان اتحدث في أمرهم معك تشكيكة ودعابة. بيد اني الآن أريد ان أتحدث اليك في شيء جزئي هو الآخر ولكن له معناه وله فلسفته وله درسه وله تهذيبه . . ذلك الشيء هو انفاذ أبي بكر الصديق لجيش أسامة بن زيد، وأعتقد انك ستوافقني بعد وقوفنا على ذلك الشيء الجزئي فنؤمن معاً بضرورة نجاح اصحاب هذه الدعوة الاسلامية، لما لهم من مميزات خلقية من عزمة حذاء، وهمة شماء، وإرادة ومضاء

اجل سأحدثك عن أسامة وبطولة اسامة وهو لم يزل بعد في طراوة إهابه وعنفوان شبابه، وهو جدير باعجابك وتقديرك لانك معجب بنابليون وبطولة نابليون وهو لم يزل بعد كأسامة في طراوة إهابه وعنفوان شبابه . . . ولكنني اعلم حبك للنصوص التاريخية لأن رسميات ذلك العصر وما هو شبيه بالرسميات مما يقع من قلبك الكبير موقع التقدير والاجلال . . . ولست في حاجة أن أذكرك ان نية رسول الله كانت منصرفة الى ان يبعث بأسامة وجيش أسامة لتأديب بعض العصاة والخارجين، ولست في حاجة لأن أقول لك ان المنية قد عاجلت الرسول دون انفاذ هذه البعثة، وان ارتداد المسلمين والذهول الذي استولى على المؤمنين بوفاة نبيهم لم يحولا بعد مما ستحدثك به النصوص والرسميات، والمصادر الشبيهة بالرسميات

يحدثنا الطبري عن مشيخته عن عاصم بن عدي: انه قد نادى منادي أبي بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتم بعث أسامة إلا يبقين بالمدينة أحد من من جند أسامة إلا خرج . . . ويحدثنا بأن ابا بكر قد خطب هذا الجند بما ستجده في أخبار السنة الحادية عشر . . . . . ثم يحدثنا الطبري بأن الحسن بن أبي الحسن البصري قد قال ما نصه: ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بعثاً على أهل المدينة ومن حولهم وفيهم عمر بن الخطاب وأمر عليهم أسامة بن زيد، فلم يجاوز بهم آخر الخندق حتى قبض رسول الله صلعم، فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر: أرجع الى خليفة رسول الله فاستأذنه بأذن لي ان أرجع بالناس، فان معي وجوه الناس وحدهم، ولا آمن على خليفة رسول الله، وثقل رسول الله، واثقال المسلمين أن يخطفهم المشركون . . . . . ! فخرج عمر بأمر أسامة، وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة. فقال ابو بكر: لو حفظتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به

رسول الله صلعم ، قال : قال الانصار امروني ان ابلغك وانهم يطلبون اليك ان تولي امرهم رجلا اقدم سناً من اسامة ، فوثب ابو بكر وكان جالساً ، فأخذ بلحية عمر فقال له ثكلتك امك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلعم وتأمرني ان انزعه . . . . . الخرج عمر الى الناس فقالوا ما صنعت فقال : امضوا ثكلتكم امهاتكم ما لقيت في سببكم من خليفة رسول الله . . . . ثم خرج ابو بكر حتى اتاهم واشخصهم وشيعهم وهو ماش ، واسامة راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة ابي بكر ، فقال له اسامة يا خليفة رسول الله والله لتركبن او لانزلن ، فقال والله لا تنزل ووالله لا اركب ، وما عليّ ان اغبر قدميّ في سبيل الله ساعة . . ان للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة . . . . . حتى اذا انتهى قال ان رايت ان تعينني بعمر فافعل ، فأذن له ثم قال : يا ايها الناس قفوا اوصيكم بعشر فاحفظوها عني ، لا تخونوا ولا تبلوا ، وتغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيرا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها الوان الطعام فاذا اكلتم شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون اقواماً قد فحصوا اوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله . . . . . اه

وانك بلاريب ستلفت نظري ياصاح الى قوة ارادة ابي بكر الممثلة في قوله « لو خطفتني الكلاب والذئاب لم ارد قضاء قضى به رسول الله » ، وستشير اليّ بما في تصميم ابي بكر على امرة اسامة من احترام ارادة الرسول ، وستذكرني بأدبه في مشيته ، وايمانه في خطوته وادبه مع قادته . . . . ستلفت نظري الى ذلك كله مما يجب عليّ ان اذكره واتدبره واما انا فأرى في عنقي بعد ان فهمت ما ترمي اليه من تبيان رسوخ ابي بكر واستصغاره للخطب وتقديره للكفايات واحترامه لحقوق الامير وهو الخليفة دونه استئذانه في النزول له عن احد رجاله عمر بن الخطاب — اما انا فأرى من قبلي ان الفت نظرك سيما في ايامنا هذه وجيلنا الراهن وحروبنا الحاضرة الى ما تضمنته وصيته لجنده من ضروب الانسانية وآداب المقاتلة . . . . اليس كذلك ؟

احمد فريد رفاعي

[تتمة هذا البحث التاريخي الطريف في مقتطف ديسمبر القادم]